
المنظومة
ALMANDUMAH


المنظومة
ALMANDUMAH

نزعة إلى التطور ـ المرأة المغربية(*)

ذ. محمد حنيني

عذبة تلك الأغاني التي سمعتها وأنا مار بإحدى أزقة فاس، أغاني كانت تنبعث من أفواه فتيات صغار كن يرسلنها عفوا في غير مشقة ولا عناء منغمة سائغة قد زادها عذوبة ولذة نبرة صوتهن الطفلي، ولست أعرف شيئا أحسن وقعا على السمع من لثغة الأطفال ولا أبعث للنشاط من الاستماع لحديثهم، كن يرسلن هذه الأغاني بالفرنسية وهن راجعات من إحدى المدارس التي أسستها الحكومة لتعليم البنات، وقد دقت الثانية عشرة فكن يسرعن إلى منازلهن ليتناولن الغذاء ولكن شهوتهن لم تصرفهن عن الاسترسال في الغناء فبعثت طرفي وقلبي إثرهن ولكني ما لبثت أن جعلت أمشي وراءهن حين أخذن يختفين عن بصري.

أراني اليوم عاجزا كل العجز عن تصوير ما تركن في نفسي من أثر، شعرت حين غبن عني بسرور لا يعدله سرور واغتباط ليس إلى تكييفه من سبيل فها أنا أذكر الآن نظراتهن الغريرة وقد شخصن ببصرهن إلي ينظرن إلي شخص أوقفته ألحانهن اللذيذة فجعل يبتسم لهن مبتهجا بابتهاجهن نشطا بنشاطهن، وها أنا أذكر ذلك الزي الظريف الذي اتخذنه خاصا بالمدرسة : أحذية أروبية تحتوي على أرجلهن الصغار وذراريع تحيط بثيابهن ورؤوسهن مكشوفة قد عافت كل ستر فأبانت ظفائرها أو ألقت شعورها النقية عن سجيتها.

لازال هذا المنظرمرتسما على صفحة ضميري ولازلت أراهن ينطلقن قواصد بيوتهن وقد توشجت أيديهن وألفت بين قلوبهن رابطة العلم، ها هن يرسلن أغانيهن بالفرنسية لا يفهمن مما يفهن به شيئا كثيرا ولكنهن مغتبطات بهذه الأغاني يعدنها مرة ومرة في غير ضجر ولا ملل.

يالها من نزعة جديدة وميل قوي إلى التطور ؛ أرى فتياتنا راضيات كل الرضى عما يراد بهن من تحسين لا يضقن ذرعا بهذا الزي الطريف ولا يستنكفن من الخروج عن العادات القديمة والتقاليد العتيقة، لقد كنت أحسب قبل اليوم أن فتاتنا أشد الفتيات احتفاظا بالقديم وأقوى تشبثا بما وضعت لنا الأيام من عادات يمجها ذوقنا الحديث وطبائعنا التي يعسر اليوم إرضاؤها بما لدينا من وسائل الارضاء، ولقد كنت أحسب أيضا أن الزمان أمات في قلبها كل نزعة إلى مثل أعلى في الحياة، فهاهي تبدي لنا عكس ما كنا نظن وهانحن نراها تنشد ذلك المثل الأعلى الذي أوشكت أن تفقد الشعور بوجوده، كانت هذه النزعة كما يحدث لبعض

(*) مجلة المغرب، عدد أبريل 1935، ص.ص. 18 ـ 20.

خوالج النفس ممعنة في سبات طويل فلما ألقت المدرسة بذورها في نفس فتياتنا أثارت كوامنها وحركت فيها ما كان في حالة الإغفاء، وهذا ما يجعلني أعتقد أن للمرأة المغربية استعدادا لكل إصلاح يراد بحياتها المادية والعقلية ورغبة قوية في أن يكون لها نصيب في رفع مستوى المغرب وربما كانت هذه الرغبة «لاشعورية» (inconsciente) ولكنها رغبة لها قيمتها وما علينا إلا أن نتعهدها ونبذل في تنميتها ما في وسعنا من جهود.

ومما يؤيد إيماني باستعداد المرأة المغربية إلى التطور هو ما أراه فيها من ميل شديد إلى تغيير ظاهرها ونزعة إلى الحياة الجديدة، فليست هذه النزعة خاصة بفتياتنا اللواتي يختلفن إلى المدرسة وليس هذا المثل الأعلى الذي تنشده المرأة المغربية بمحتكر لدى كل فتاة عرفت بعض الكلمات الفرنسية وتلقت دروسا في النسج والتطريز وما إلى هذا وإنما هي نزعة عمت حتى النساء اللواتي بلغن الثلاثين، لك أن تذهب يوما من أيام الربيع إلى أي مكان ازدهرت فيه الطبيعة فتفتحت الأزهار ولبست الأرض رداءها الأخضر وغنت الأطيار بأعذب وأشجى ألحانها لترى نساءنا وقد لبسن ألوانا من الثياب تتفق والفصل الذي نحن فيه ولتراهن ينفقن ساعات طوالا في التمتع بالحياة، لك مثلا أن تذهب إلى "سيدي حرازم" أو إلى أحد المنتزهات العمومية لتتبين مبلغ هذه النزعة والميل الشديد إلى إظهار شخصياتهن فهن يحاولن أن يفهمننا أنهن خرجن من الطور الذي كانت تعد فيه المرأة نكرة من النكرات وأن لهن حقوقا ونصيبا في الحياة ليس إلى إنكاره من سبيل، أقم يوما من أيام الربيع في "سيدي حرازم" حيث الهواء الطلق وحيث النخيل وصنوف الأشجار وحيث البرك الدافئة وحدثني عما رأيت وسمعت أثناء هذه الإقامة، لست ترى إلا نساء ورجالا وولدانا ولست ترى إلا نشاطا عاما : رجال يسبحون ويكثرون من الصياح والضجيج ونساء في بركتهن الخاصة لا تسمع لهن إلا ضحكا وزغردة، وهنا وهناك زمر متفرقة منهن تتفيأ ظلال الأشجار وتستمتع بالنسيم العليل.

وكل ما تراه عين العابر إن هو إلا أشخاص قد استبدلوا بلباسهم العتيق لباسا ملائما لروح النزعة التي جعلت تذهب بهم كل مذهب، فنساؤنا اليوم - وإن بقي بعض الشذوذ - ينكرن انكارا ارتداء (الحايك) ويأبين كل الإباء إلا أن يلبسن جلباب الرجال ويحتذين خفافا أوربية أو خفافا مغربية دخلها بعض التحسين، كل هذا وهن يحتفظن ما وسعهن الاحتفاظ بنقابهن.

ألست ترى أن هذا الضرب من الاستمتاع بالحياة يشبه من بعض الوجوه ما نراه في سائر الخلجان من الاستلام للنور والماء والهواء الطلق؟

هذا تطور ولاشك ظاهري ولكنه تطور نرجو أن تكون له عاقبة حسنة ويكفينا الآن أن توجد هذه النزعة مستقرة في نفوس نسائنا وأن يكون مظهرها تطورا ظاهريا فالتطور الظاهري خطوة نحو التطور الداخلي وميل شديد إلى إقامة ما بالنفس من عوج، ولعل باسكال (Pascal) هو الذي كان يقول حسب من أراد أن يملأ الإيمان قلبه أن يعتكف على الصلاة وأن يقوم بجميع الحركات الجسمية التي تستلزمها هذه الصلاة، وحسب نساءنا اليوم أن يقتدين بالغربيين في نواحي معينة فالزمان كفيل لهن بخير ما عندهم.

ولكن كيف يمكننا أن نتعهد هذه النزعة وكيف نستطيع أن نستغلها حتى نوجد فتاة قادرة على فهم الحياة وعلى إرضاء شبابنا العسير؟ سؤال سنعرض له فيما بعد.